



أثر الدين والسياسة في اتجاهات الحركة

الفكرية في عهد

ختم نهاية القرن الرابع الهجري

.....

الأستاذ المشارك الدكتور: محمد عبد الله القذافي

أ. م. د. بدر بن هلال العلوي

قسم التاريخ \ كلية الآداب والعلوم الاجتماعية \ جامعة السلطان قابوس



الملخص

تُعدّ سنة (١٧٧هـ - ٧٩٦م) سنةً فارقة في تاريخ عُمان بعد نجاح التجربة السياسية الثانية بإعلان قيام الإمامة الثانية ، والتي اتخذت من مدينة نزوى عاصمة جديدة . وكان لذلك أثره في مختلف جوانب الحياة : الاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

وكانت منظومة الإمامة - الإمام وأهل الحل والعقد- تقوم على العلم بالأحكام الشرعية ، فكان العلم شرطاً أساسياً في اختيار الإمام ، والحال عينه ينطبق على أهل الحل والعقد ، فكانوا من العلماء المبرّزين في الفقه وعلوم الشرع ، وقد انعكس بدوره على المنظومة الإدارية ، فلم يكن يتولاها ولاسيما الوظائف ذات الارتباط بالأحكام الشرعية كالقضاء والتعليم ، بل إن الولاة غالباً ما أسندت إليهم إضافة إلى مهامهم الإدارية مهمة القضاء في ولاياتهم ، لذا كان شرط العلم أساسياً في اختيارهم.

لقد أسهمت تلك التطورات في ازدهار الحياة العلمية ونشّطت اتجاهاتها، فغدّت المساجد بما خصص لها من أوقاف تلعب دوراً في النشاط العلمي، كما كانت مجالس كبار العلماء مركزاً من مراكز الإشعاع العلمي بمختلف المدن العُمانية.

الكلمات المفتاحية: عُمان، الحياة العلمية ، أباضي ، نزوى ، أوقاف

The Impact of Religion and Politics on the Trends of Intellectual Movement in Oman until the End of the Fourth Century A.H

DR: Mohammad Abdallah Alqadahat

DR: badar bin hilal Alalwi

Abstract:

The year 177 AH / 796 AD is a landmark year in the history of Oman after the success of the second political experience to declare the Second Imamate, where Nizwa became a new capital. This has had an impact on various aspects of life: socially, economically and intellectually.

The imamate system - the Imam and the people of the solution and the contract - was based on knowledge of the Islamic provisions. Scientific merit was a prerequisite in the choice of the imam, and the same applies to the people of the solution and the contract as they were among the prominent scholars in jurisprudence and Sharia science. This in turn was reflected on the administrative system that only appoints those who have high scientific merits in particular jobs related to Sharia judgments, such as the judiciary and education. However, the governors were assigned the tasks of the judiciary in their states in addition to their administrative tasks, so the requirement of scientific merits was essential in their selection.

These developments have contributed to the prosperity of scientific life and activated their trends. The mosques, with their endowments, play an important role in the scientific activities. The councils of senior scientists were also centers for promoting science in various cities. These councils attracted students from different parts of Oman.

Keywords: Oman, Scientific Life, abadi, Nizwa, aWaqf

مقدمة:

دخلت عُمان وأهلها الإسلام طواعية في عهد ملكيها : جيفر وعبد ابني الجلندي ، بعد رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهما ^(١) يدعوهم فيها إلى الإسلام ^(٢). وقد أسهمت القبائل العُمانية بدورٍ مهم في نشر الإسلام من خلال قيادة أبي صفرة لبعض الجيوش ، فقد كان تحت إمرته ثلاثة آلاف من الجند غالبيتهم من أزد عُمان ^(٣).

استمر ارتباط عُمان بالمدينة فبايعت الخلفاء الراشدين ، إلى أن حدثت الفتنة التي أسهمت في تشرذم الأمة وانقسامها ، إلا أن تولي الأمويين للحكم قد أثار الكثير من الأقاليم الإسلامية لاسيما بعد عهد معاوية بن أبي سفيان لولده يزيد بولاية العهد ، فما أن توفي معاوية وتولى يزيد الخلافة حتى ثارت الأقاليم رافضةً الأمر، وكان موقف عُمان من أولئك الرافضين ، لذا لم يَعدّ للنفوذ الأموي وجود في عمان إلى أن تولى عبد الملك بن مروان الحكم ^(٤)، فعهد بولاية العراق للحجاج بن يوسف الثقفي ، وكانت عُمان تابعة إدارياً للعراق لذلك قرر الحجاج استعادت السيطرة على عُمان وكان له ما أراد ^(٥).

استمرت سيطرت الدولة الأموية على عمان حتى ظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ - ٧٤٨م، وقد استغل العمانيون التطورات الجديدة : انهيار الدولة الأموية ، وعدم استقرار الأمر للدولة الجديدة ، فأعلنوا عن قيام إمامتهم الأولى والتي لم تستمر أكثر من عامين ، فما أن استقرت أوضاع الدولة العباسية حتى جردت حملة في العام (١٣٤هـ - ٧٥١م) استطاعت من خلالها القضاء على الإمامة ، وبسط سيطرتها على عمان من جديد ^(٦).

استمرت عمان خاضعة للسلطة العباسية حتى عام (١٧٧هـ - ٧٩٣م) ، عندما أعلن عن قيام الإمامة الثانية ^(٧)، ليبدأ العمانيون من جديد حكم بلادهم متخذين مبدأ الشورى في اختيار الأئمة، متأسين بتجربة الخلافة الراشدة.

وتأتي هذه الدراسة للإجابة على عدة أسئلة تشكل في مجملها محور الدراسة :

- ما هي آثار التحولات السياسية التي شهدتها عُمان في القرن الثاني الهجري في تنشيط الحركة الفكرية؟
- ما هو أثر المذهب الإباضي في تطورات الحركة الفكرية؟

- كيف أسهم الوقف في تنشيط الحركة العلمية واتجاهاتها الفكرية ؟

ولمعالجة موضوع الدراسة ، قُسمت إلى عدة محاور:

أولاً: التطورات السياسية في العالم الإسلامي وأثرها على عُمان

كان لتطورات السياسة التي عصفت بالعالم الإسلامي بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان أثرها على مختلف أرجاء العالم الإسلامي ومنها البلاد العُمانية ، فقد كان من نتائج تلك الأحداث انقسام المسلمين واختلاف وجهات النظر في ما حدث بعد تولي الأمويين الحكم ، لاسيما بعد الخطوة المخالفة للمنهج الشوري الذي قامت عليه نظرية الحكم الإسلامي، والمتتمثلة بالتوريث عندما عهد معاوية وبولاية العهد لابنه يزيد ، ونجد أن الأمويين واجهوا حركات المعارضة السياسية بالقسوة ، مقرونا ذلك بمحاولة إضفاء الشرعية على حكمهم من خلال احتضانهم لمجموعة من العلماء الذين أخذوا يروجون لمبدأ الجبرية ، بالمقابل أخذت حركات المعارضة لسياسة بني أمية تنحو نفس النحو وتحاول الرد على هذ التوجهات بفكر مضاد، وتروج إلى أن ما قام به الأمويين ما هو إلا انقلاب على مفهوم الشورى ومخالفة لسياسة الراشدين.

كان الفكر الإباضي^(٨) الذي أخذ بالنمو في مدينة البصرة من جملة التيارات الفكرية المعارضة لسياسات بني أمية ، وناله وأتباعه ما نال غيرهم من بطش الأمويين ، وقد تعرضوا شأن غيرهم من المعارضين لضربات موجعة من لدن السلطة الأموية بدمشق ، فكان البحث عن مكان آمن الخطوة الضرورية التي شغلت اتباع الفكر الإباضي، فكان اختيار عُمان التي تعد جغرافياً بعيدة عن أعين الأمويين وسلطتهم ، وحتى يتحقق الأمر كان لا بد من التمهيد لهذه المرحلة بنشر مبادئ المذهب بين العُمانيين ، وقد أوكلت هذه المهمة إلى أربعة عرفوا بـ " حملة العلم " ، وهنا لا بد من توضيح مسألة غاية في الأهمية أن الإباضية في مرحلة البناء ، والتي تعرف بطور الكتان ، قد عملوا على تأسيس ثلاثة مجالس لتولي أدوار ومهام مختلفة : مجلس العلماء، والمجلس العام، ومجلس حملة العلم(٩).

ما يهمننا في المسألة أن الحراك الإباضي منذ نشأته ارتبط واقترن عمله بالعلم والعلماء ، بل إن القائمين على نشره كانوا من كبار العلماء ، الذين جهدوا في صياغة النظرية الإباضية في مجال الحكم والسياسة ، وفي الوقت نفسه عملوا على نشر هذا المذهب لاسيما في المناطق البعيدة عن يد السلطة الأموية ومن بعهدا العباسية.

ولنعد إلى البدايات فبعد تمصير مدينة البصرة عام (١٧هـ / ٦٣٨م) بدأت حركة استقرار لقبائل الأزدي فيها شأن غيرها من القبائل العربية ^(١٠) ، ومع تطور الأحداث السياسية لاسيما بعد انتقال السلطة للأمويين ، وظهور حركات معارضة للسلطة الجديدة ، نجد إن البصرة كانت الحاضنة الأولى للفكر الإباضي ومركزاً لنشره لاسيما في المناطق البعيدة عن أعين السلطة ، ويمثل الإمام أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة ^(١١) نموذجاً حياً للمشاركة الإباضية في الحياة الفكرية في البصرة ، فقد عمل على إعداد جيل من الدعاة المؤمنين بالفكر الإباضي ، وسيكون لهم دور كبير في نشره في بلاد المغرب وعُمان ^(١٢) لذا نجد إقبالا من العُمانيين في السفر إلى البصرة لتلقي العلم على أيدي علمائها لا سيما علماء المذهب ، وشكل هؤلاء اللبنة الأولى التي انطلق منها الفكر الإباضي ، واصبحوا قادة هذا الفكر والمرجع لطلبة العلم من ابناء المذهب ، وسيكون لهم دور كبير في هذا المجال بعد انتقالهم إلى عُمان ، والذين كانوا من أعلام الحركة الإباضية في البصرة وهم : أبو المنذر بشير بن المنذر ، ومحمد بن المعلى ، ومنير بن النير ، وموسى بن أبي جابر ^(١٣) ، وقد عمل هؤلاء نفر على نشر العلم وتعليم الناس شؤون دينهم ، مركزين في الوقت نفسه على نشر الفكر الإباضي.

وكان للخطوة التي اتخذها الحجاج للتخلص من جابر بن زيد الأزدي اليحمدي ^(١٤) أثرها الإيجابي ، فعندما نفاه إلى عُمان كان ذلك عاملا مهما في تعزيز الوجود الإباضي في عُمان ، وجابر يُعدّ من أحد الأعلام الكبار في البصرة في علم الحديث والفقه ، وصفه الذهبي بـ "عالم أهل البصرة في زمانه" ^(١٥) ، أخذ العلم عن الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين ، وهو من كبار تلامذة ابن عباس ، وحدث عنه : عمرو بن دينار ، وأيوب السخيتاني ، وقتادة ، وآخرون روى : عطاء عن ابن عباس ، قوله : لو إن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد ، لأوسعهم علما عما في كتاب الله ^(١٦) ، وروى عن ابن عباس أنه قال : تسألوني وفيكم جابر بن زيد ^(١٧) ، وعن عمرو بن دينار ، قال : ما رأيت أحدا أعلم من أبي الشعثاء ^(١٨).

ونقل الذهبي عن إياس بن معاوية قوله : " أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد وقال قتادة يوم موت جابر بن زيد : "اليوم دفن علم أهل البصرة - أو قال: عالم العراق-"^(١٩).

استطاعت الحركة الإباضية بفضل حملة العلم من إطلاق أول ثورة في جنوب شبه الجزيرة العربية (١٢٨هـ - ٧٤٧م) امتدت من حضر موت وصنعاء إلى مكة والمدينة ، وفي المغرب لعب الإباضيون بعد الفتح الإسلامي دوراً راجحاً في تلك البلاد واستقرارها، واستطاعوا تأسيس عدة إمارات ، وختمت جهودهم بإعلان قيام الدولة الرستمية (١٤٤ - ٢٩٦هـ / ٧٦١ - ٩٠٩م)^(٢٠)، وفي عُمان نجح الاباضية في عام ١٣٢هـ / ٧٤٩م بإعلان إمامتهم الأولى والتي لم تدم طويلاً فبعد عامين على إعلانها وجهت الدولة العباسية ضربة عسكرية أنهت وجودها، وسقطت صحار عاصمة الإمامة بيد العباسيين^(٢١).

لقد كان للضربة الموجهة التي أطاحت بالإمامة الأولى أثرها في الاستقرار البشري في منطقة الساحل لاسيما صحار، فنجد أن الكثير من أهلها لاسيما العلماء ومنظروا الدعوة قد انتقلوا إلى المنطقة الداخلية من عُمان ، إذ عمل هؤلاء على إعادة تنظيم دعوتهم ونشرها من جديد ، مع التفكير العميق في اختيار موطن جديد لدعوتهم ، وعاصمة لإمامتهم حال إعلانها ، وقد تحقق الأمر عام ١٧٧هـ / ٧٩٣م بقيام الإمامة الثانية وقد اتفق أهل الرأي والسياسة على اتخاذ نزوى عاصمة للدولة ؛ فغدت نزوى مركزاً مهماً للدعوة الإباضية تجمع بها الكثير من العلماء والأشياخ القائمين على أمر المذهب ، والباحثين عن محاولة جديدة لإعادة إمامتهم^(٢٢).

ثانياً: طبيعة نظام الحكم وأثره في تنشيط الحركة الثقافية

هناك حقيقة لا بد من الإشارة إليها وهي أن الفكر الإباضي الذي تمخض عنه دولة ونظام (الإمامة) قام على أكتاف ثلة من العلماء المتبحرين في شؤون الدين الإسلامي ، وليس مجرد قوة معارضة ثارت لأجل التخلص من حكم تراه ظالم وجائر، ومن خلاهم وبتعاليمهم انتشر المذهب سرّاً في أقاليم من العالم الإسلامي : عُمان، المغرب ، وبلاد اليمن والحجاز، وسبب استمرار هذا الفكر هم أيضاً العلماء الذين لم يكتفوا بمجرد المعارضة للحكم

الأموي والعباسي ، بل بدأوا يصنفون ويؤلفون في القضايا الجدلية خاصة نظرية الحكم الإسلامي ، وبالتالي تشرب هذا الفكر إلى المؤمنين به من طلبة العلم وحملته الذين نشره في البلاد.

ولما كان هؤلاء هدفهم وغايتهم إحياء السنة (القائمة على الشورى) في اختيار الإمام ، لذلك عملوا على تقعيد الشروط الواجب توفرها بالمرشح لمنصب الإمامة ، وكذلك أولئك النفر الذين يعقدونها له ، كان العلم بالأحكام أحد الشروط الواجب في هذه المعادلة ، لذلك كان الأئمة فقهاء وعلماء وعلى تماس كبير مع الحركة الفكرية الناشطة في بلادهم ، وهذا ما عزز بدوره الحركة العلمية في الحواضر العُمانية ومنها العاصمة نزوى ، فقد كان الأئمة أصحاب فتوى وآراء فقهية ، ونجد تلك الآراء ماثلة في المصنفات الفقهية اللاحقة أمثال الإمام الوارث بن كعب (ت ١٩٢هـ/٨٠٧م) ^(٢٣) ، وكذلك الإمام غسان بن عبدالله اليمامي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م) ^(٢٤).

ليس هذا فحسب بل نجد بعض الأئمة قد تصدوا للتصنيف والتأليف ومن هؤلاء المهنا بن جيفر (ت ٢٣٧هـ/٨٥١) الذي صنف سيرة عرفة باسمه "سيرة المهنا بن جيفر" وقد استعرض الشيباني في تقديمه وتحقيقه لكتاب "السيرة المضيئة لأهل المنصورة" مخطوطات السير عامة من حيث عدد نسخها وأماكن تواجدها ، كما أشار إلى محتويات بعضها ، فقد شملت سيرة المهنا على مواضيع متنوعة في قضايا العقيدة والفقه : باب في التوحيد ، وباب في الوضوء والصلاة ، وآخر في القدر ، وباب في الرقيق ، وكذلك باب في الطلاق ^(٢٥).

أما الإمام الصلت بن مالك الخروصي (٢٣٧-٢٧٢/٨٥١-٨٨٥م) فقد اكتسب من المؤهلات العلمية والقيادية ما أهله لتولي منصب الإمامة ، ويمكن التدليل على ذلك مما أورده المصنفات الفقهية من أقوال وآراء فقهية للإمام الصلت ، والتي جاءت ماثلة في المخطوطات العُمانية ، هذا إلى جانب الجهود الماثورة عنه والتي كتب بها إلى ولاته ^(٢٦) ، التي تؤكد ما كان يتمتع به من معرفة في الفقه وعلوم الدين ^(٢٧).

في الوقت نفسه يستند نظام الإمامة إلى مؤسسة أساسية عمادها كبار العلماء ، وتعرف بـ "أهل الحل والعقد" عليهم تقع مسؤولية اختيار الإمام بحيث يكون: "افقههم وأقواهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ^(٢٨). وهم أهل الشورى من أصحاب الرأي والفضل والعلم الذين يقومون بترشيح الإمام ، الذي تنطبق عليه شروط الإمامة ^(٢٩). وكان الغالب على هذه الهيئة كبار العلماء إضافة إلى زعماء القبائل ^(٣٠) ، ولا يتوقف أمر هذه الهيئة عند

ذلك بل تمثل بمجموعها دعامة رئيسة للإمامة ومؤسساتها ، فغالب وظائف الدولة يتولاها هؤلاء العلماء لاسيما ما له علاقة بالشؤون الدينية كالقضاء والافتاء وإمامة المساجد إضافة إلى مهنة التعليم.

وهناك مهمة خطيرة أصبحت من جملة مهام هؤلاء العلماء ، وتتمثل بأن هؤلاء العلماء لم يكونوا محدودي النطاق الفكري ، وتقتصر حدودهم على الاهتمام بما هو عُثماني فقط ، بل أصبحوا يمثلون الشرعية الدينية الأساسية للفقهاء الإباضي في كل أرجاء بلاد الإسلام، يستشارون ويُستفون في مسائل الحكم والسياسة والدين.

إن المطالع لقائمة السير والجوابات يدرك تلك الحقيقة فكثير منها كتب لأهل تلك البلاد كما هو الحال في "سيرة محبوب بن الرحيل إلى جماعة من كتب إليه من المسلمين من أهل المغرب"^(٣١) ، وكذلك سيرته إلى أهل حضر موت في أمر هارون بن البيان^(٣٢) ، وأيضاً سيرة "أبي الحواري لأهل حضر موت"^(٣٣). وكما قال السليمان ، فإن إسداء العُثمانيين النصح لإخوانهم المغاربة وشمولهم بالرعاية ، يدل على شعور العُثمانيين بأبوتهم الروحية للمغاربة ، وكذلك تقبل المغاربة لذلك النصح ، وحاجتهم لاستفتاء أهل المشرق، كل ذلك دليل على عمق الصلات وتوثق العلاقات^(٣٤).

كما غدت مصنفات العُثمانيين مراجع معتبرة ورئيسة لأهل المغرب ، ولعل كتاب الفقه لمصنفه محبوب بن الرحيل والواقع في سبعين مجلدة دليل أكيد على ذلك^(٣٥) ، ومن الكتب التي لقيت انتشاراً في بلاد المغرب مدونة أبي غانم الخراساني، الذي قدم المغرب في عهد الإمام الرستمي عبد الوهاب بن عبد الرحمن (١٧١-٧٨٧\٢٠٨-٨٢٣م) والذي أودع نسخة من مدونته هناك^(٣٦).

يتبين مما سبق دور العامل المذهبي في تنشيط هذه العلاقات ، وإن هذا التواصل لم يكن ظرفياً ، بل شكل ظاهرة ملازمة لتاريخ البلدين^(٣٧) ، فقد عملت هذه البيئة الحاضنة المتمتعة بالعلم على نشر العلم والتأصيل له في مجالات الفتوى والفقه.

كما لا بد أن نشير أنه بعد نجاح التجربة السياسية الأولى والمتمثلة بإقامة الإمامة الأولى ، وغدت الحواضر والمدن العُثمانية نقطة جذب لعلماء المذهب وطلاب العلم من كافة الأرجاء، وهذا خلق بيئة علمية متنامية حولت

نزوى لتصبح عاصمة الفكر الإباضي ، ومركزاً أساسياً لانتاج ذلك الفكر ، والتنظير في مسائله المختلفة وتعكس المصنفات الفقهية التي صنف خلال هذه المرحلة مرحلة النضج الفكري لعلماء المذهب الذين حاولوا التقعيد لمذهبهم ، وفي الوقت نفسه إيجاد الفتاوى التي تناسب واقع مجتمعهم بما لا يتعارض مع قواعد الشرع.

ومما سبق نجد أن الإمامة الإباضية قد أظهرت عناية خاصة بالتعليم ومؤسساته لدرجة أن القراءة في تاريخ المؤسسات الإباضية تقدم دليلاً قاطعاً على أن العلم كان القضية الأولى وهو أمر لا يمكن المرور عليه بشكل سريع ، وإنما كان بمثابة الدعامة الأساسية لبناء الدولة ، ليس في شكلها السياسي فقط ، وإنما في بعدها الأخلاقي والديني والتربوي ، بداية من الإمام وهو رأس الدولة ومرجعيتها الأولى ، فالشرط الأول من شروط اختياره هو العلم ، ليس مجرد العلم الشريعة ، بل امتلاك المقومات التي تؤهله لكي يكون قادراً على الاجتهاد الذي يحقق المصلحة للدولة والشعب^(٣٨).

ثالثاً: المسجد ومجالس العلم ودورها في تنشيط الحركة العلمية

لم تشهد عُمان خلال حقبة الدراسة ظهور المدرسة كمبنى مستقل تقوم بالدور المنوط بها ، لذا كانت المساجد شأن مثيلاتها من المدن الإسلامية تقوم بالدور التعليمي الذي يعد جزءاً من البعد التعبدية لدى العلماء وطلبة العلم ، فأسهمت المساجد بدور كبير في الحياة العلمية التي تمثل امتداداً للجانب الديني الذي أنشئت لأجله ، ففيها كان الناس يطرحون على العلماء مسائل تتعلق بشؤون دينهم ودنياهم ، وفيها كان العلماء يعقدون مجالسهم العلمية بين أوقات الصلوات ، لذا نجد اهتماماً واضحاً من أهل المدينة في المساجد من حيث العمارة ومحاولة توفير مصادر دخل ثابتة تتولى ديمومة المسجد في دوره الديني والتعبدية ، فكان الوقف الوسيلة المثلى لذلك^(٣٩).

وهناك مظهر مهم من مظاهر النشاط الثقافي الذي أسهم العلماء في إنشاء ما يمكن أن نسميه "مراكز علمية خاصة" إذ نجد عدداً من العلماء أنشأوا مساجد على نفقتهم الخاصة ، فيها يعقد العالم مجالسه العلمية ، فقد أنشأ العلامة بشير بن المنذر النزوى ثلاثة مساجد هي: مسجد الشيخ ومسجد بشير بالمحيث ومسجد الدعاء بالعقر، وكان هدفه إضافة إلى كون هذه المساجد أماكن للعبادة ، فإنه كان يرغب من خلال مجالسه التي كان يعقدها فيها

تثبيت مبادئ الدعوة الإباضية وقيمها داخل المجتمع النزوي^(١١)، فإن الهدف الخفي هو إعداد أجيال تقوم على أكتافها الإمامة الإباضية، وتحمل عبء المحافظة على مكتسباتها والدفاع عنها^(١٢)، وهذا ملاحظ من التوزيع الجغرافي لتلك المساجد، فقد جعلها في محلات متعددة^(١٣)، فقد اشتهر جامع العقر بالمجالس العلمية التي كان يعقدها الشيخ البشير بن المنذر (عاش في ٢٨٥هـ/٨م). ونجد أنه لما كبر وتقدم به السن رخص له العلماء انشاء مسجد في حارته وقد عرف بمسجد الشيخ، إذ غدا مسجده الجديد نقطة جذب لطلبة العلم حتى وفاته^(١٤)، كما انشأ الشيخ الفقيه أبو المؤثر الصلت بن خميس الخروصي مسجداً في عقر نزوى^(١٥)، واشتهر في نزوى مسجد مخلص، نسبة إلى منشئه الشيخ مخلص بن روح الكندي، والذي عكف على إمامته وإلقاء الدروس العلمية فيه^(١٦).

رابعاً: عزل الإمام الصلت بن مالك وأثره في الحركة العلمية

يمثل عام (٢٧٢هـ/٧٧٥م) تحولاً خطيراً في تاريخ عُمان، إذ شهد حادثة خطيرة أثرت سلباً في عموم تاريخ البلاد، وتمثل ذلك بعزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي^(١٧)، وقد كان لذلك آثاره الخطيرة على المستقبل السياسي ووحدة البلاد العُمانية، وأخطر ما في الأمر انقسام العلماء الذين كانوا يشكلون الدعامة الأساسية والقوة الحقيقية لمؤسسة الإمامة إلى فرقتين سياسيتين وفكرتين نقصد بهما: الرستاقية والنزوانية، فأخذ أصحاب كل مدرسة تقديم الأدلة الشرعية على صواب رأيهم لاسيما فيما يتعلق بمسألة الإمامة والحكم ومحاولة كل طرف التأصيل للمسألة والتنظير فيها باستحضار أحداث الفتنة الأولى في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وكان من جملة ما طرأ في هذا الاتجاه استدعاء آراء الفرق الكلامية: المعتزلة والمرجئة لوضع الأطر لمسألة الإمامة^(١٨).

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى البحث في المسائل العقدية، ومع كل الآثار السلبية التي خلفها هذا الانقسام على وحدة البلاد، التي دفعت البعض للاستعانة بالعباسيين ضد أعدائهم وأنهت الإمامة الثانية سنة (٢٨٠هـ-٨٩٣م)^(١٩) إلا أنه كان له أثر إيجابي في الحياة الفكرية وهذا ما نجده واضحاً في المصنفات التي توالى ظهورها بعد هذا التاريخ.

كان موقف المدرسة الرستاقية موقف البراءة من الخارجين على الإمام الصلت بن مالك، والبراءة من العلماء الذين أيدوا عزله أو الذين وقفوا في الحياد، ولم ينصروا الإمام بالفعل أو القول، وعلى عكس هذا الموقف كان رأي المدرسة النزوانية فكان موقفها معتدلاً من مسألة العزل والشك فيها، ومنهم من حاول إيجاد العذر لمن قام بذلك، وعدم الخوض في خلاف مضى عليه زمننا، ويرى أنصار النزوانية إن الاختلاف في مسألة العزل إنما هي دعاوي تحمل الحق والباطل، وهذا لا يتحقق إلاّ بالمشاهدة أو نحوه^(٤٨).

وما يهمننا في هذه المسألة النتائج الإيجابية - إن جاز التعبير - وأثرها على الحياة الفكرية، فرغم أن الصراع الفكري السياسي العقائدي بين المدرستين أثر بشكل سلبي على استقرار عُمان، إلاّ أنه أنعش وأثرى الجانب الفكري بشكل إيجابي جداً من خلال ذلك الكم الكبير من المؤلفات، والسير، والمقالات، والشروح، والأدلة التي كانت حاضرة بقوة بين علماء الفرقين، ككتاب الموازنة لابن بركة، وكتاب الحجة على من أبطل السؤال في الحدث الواقع بعُمان لأبي الحسن البسيوي، وكتاب الإستقامة والمعتبر لأبي سعيد الكدومي، وكتاب الاهتداء لأحمد بن عبدالله الكندي.

كما أسهم علماء المدرستين في رفد المجتمع العُماني بالكم الكبير من البحوث المستفيضة في مجال نظام الحكم في الإسلام من خلال مناقشات ومناظرات أصحابها حول كيفية شكل الحكم، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، والانعكاسات السلوكية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية من جراء ذلك، والتي من خلالها تطورت النظرية السياسية عن العُمانيين حول الإمامة، وأنواعها، وشروطها، وموجبات العزل، وهذا ما أشار إليه الكندي: "فألفوا السير وصنفوا الكتب، وأثروا المقالات وساقوا الحجج وشرحوا وأوضحوا الأدلة"^(٤٩).

ولعل ما ضمنه العلامة أبو سعيد محمد بن سعيد الكدومي في كتابه الاستقامة دليل عملي على التنظير الفقهي والسياسي في هذه المرحلة من الحراك الفكري الذي شهدته الساحة العُمانية لا سيما مسألة الولاء والبراءة التي كانت مثار جدال وخلاف بين العلماء، فقد لخص المسألة بقوله: "فإذا كان الحدث يحتمل الباطل ويحتمل الحق، ولا يصح باطله، ولا حقه، وكان فيه الحكم لله وللعباد، ففيه الاختلاف في الولاية والبراءة والوقوف، وليس لأحد من أهل

المنازل يخطئ صاحبه ، ولا يدعي على المحدث ذلك الحدث بغياً ولا قذفاً ، وإنما يبرأ منه بما ظهر منه مما هو مجبور عليه^(٥٠).

كما يُعدّ الفقيه محمد بن الحواري من أشهر علماء هذه المرحلة ، نشأ وعاش بنزوى وبها أخذ العلم عن كبار علمائها أمثال: محمد بن محبوب بن الرحيل. عاصر أبو الحواري الأحداث التي أعقبت عزل الصلت بن مالك، وقد وقف موقفاً محايداً من تلك المسألة^(٥١) وله في ذلك سيرة عُرفت بـ "سيرة أبي الحواري" أوضح فيها ما يراه من الأحكام في تلك الأحداث ومن الأحداث السياسية الهامة التي عاصرها دخول محمد بن نور إلى عُمان^(٥٢).

ومما كتب أيضاً في تفاصيل قضية العزل الفقيه أبو المنذر بشير بن محمد بن محبوب بن الرحيل، فقد وضع سيرة عرفت بـ "سيرة أبو المنذر بشير بن محمد بن محبوب في الحدث الواقع بعُمان" وكان موقف الفقيه واضحاً في تحميل الخارجين على الإمام المسؤولية^(٥٣).

ولم يتوقف الأمر في هذه المسألة على البلاد العُمانية، بل كان للمسألة أصداء في الأقاليم الإباضية المذهب ببلاد المغرب، والذين أرسلوا إلى شيوخهم في عُمان لاستيضاح الأمر، فقد أرسل أهل المغرب كتاباً "سيرة" إلى الإمام الصلت بن مالك يستوضحون التطورات في البلاد العُمانية^(٥٤).

خامساً: انعكاسات التطورات السياسية في اتجاهات التصنيف عن العلماء

إن المتتبع للمصنفات العُمانية خلال فترة الدراسة يجدها سارت في مسارين، تبعاً للظروف والتطورات السياسية، ويمكن أن نسميه كتابة السير والجوابات ، والمسار الآخر التصنيف الفقهي، ونتاجهما بشي من التفصيل.

أ- السير والجوابات

عرفت بعض الأعمال في المصادر العُمانية باسم السير، ومفردتها سيرة، والسيرة في عرفهم تعني: رسالة يبحث فيها مؤلفها قضية نازلة في المجتمع تستدعيه أن يقول رأيه فيها استقلالاً أو جواباً لسائل أو رداً على

مخالف^(٥٥)، واستخدم المصطلح أحيانا لعنونة عمل مرتبط باسم شخص ما، وعادة ما تأتي مترافقة مع رسائل أو جوابات جرى تبادلها، وتعتبر بعض هذه السير من بواكير التأليف الإسلامي^(٥٦).

وتعبر بعض السير عن وجهات نظر شخصية إزاء الأحداث التي عصفت بعُمان بعد سقوط الإمامة الأولى عام (١٣٤هـ / ٧٥١م)، إذ يبدي المؤلف تأييده أو اعتراضه على الإمام الإباضي منها "كتاب الأحداث" لأبي المؤثر والذي عاش أثناء إمامة الصلت بن مالك، وتتوسع سير أخرى في الخلافات التي جرت بين الإباضية أنفسهم، ويمكن القول بأن السير العُمانية هي مادة مصدريّة جديدة في التراث العُمانِي بشكل خاص والعربي بشكل عام، وهي ذات فائدة في إضافة معلومات جديدة عن تاريخ منطقة عُمان عبر القرون التي كتبت فيها هذه السير وبالمواضيع التي تعني بها وسير الرجال الذين أثروا في تاريخها^(٥٧).

هذا النوع من الكتابة الانشائية الذي أزهَرَ عند العُمانيين في الواقع لم يكن عُمانيا إنما انتقل إلى عُمان في القرن الثاني هجري\ الثامن ميلادي بعد أن استخدم في البداية فن قبل العلماء الإباضيين في البصرة والمذاهب الإسلامية الأخرى في البصرة ثم انتقل بعدها إلى عُمان ويحتمل أن يكون انتقل إلى عُمان مع ما يعرف بحملة العلم إذ انتشر (خصوصا) بعد قيام الإمامة الأولى في عُمان (١٣٢، ٧٤٨) واستقلالية عُمان عن الدولة المركزية بالمعنى النهائي وبداية التكوين المعرفي الايديولوجي الجديد لعُمان^(٥٨).

وهذه السير هي عبارة عن رسائل سياسية ودينية، ويروي بعضها من وجهة نظر إباضية تطور حركة المعارضة في الدولة الإسلامية، مركزة على الحرب الأهلية الأولى بين المسلمين إذ أخذ الجدل الديني والسياسي وجهة تناقض المذاهب الإسلامية الأخرى وبمواجهة السلطة السياسية المركزية كما هي الحال في سيرة شبيب بن عطية الذي عاش بعُمان في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، وتعبر بعض السير عن وجهات نظر شخصية إزاء الأحداث التي عصفت بعُمان بعد سقوط الإمامة الأولى عام (١٣٤هـ / ٧٥١م)، إذ يبدي المؤلف تأييده أو اعتراضه على الإمام الإباضي كما هو الحال في كتاب "الأحداث" لأبي المؤثر والذي عاش أثناء إمامة الصلت بن مالك الخروصي واستقال أو عزل من منصبه عام (٢٧٢هـ / ٨٨٥م)^(٥٩)، وتتوسع سير أخرى في الخلافات التي جرت بين الإباضية^(٦٠) أنفسهم^(٦١).

وعلى ذلك يمكننا القول بأن دراسة السير العُمانية هي دراسة في كتابة التاريخ العُماني وتبلور ذلك عبر القرون والأمر يختلف عن جهد المؤلفين العُمانيين في موضوع الفقه مثلاً ، إذ انصب الاهتمام الأول على الفقه ، فإن ذلك قد تبلور بسرعة متفاعلاً ربما مع ما قام به رواد الإباضية الأوائل بالبصرة ، ولربما أيضاً مع حركة التأليف لدى إباضية المغرب أو التأليف الفقهي الإسلامي بعمامة ، لقد كانت المحاولة هي إبراز السير العُمانية كظاهرة ثقافية وفكرية في الكتابة التاريخية في الأدبيات الكلاسيكية العربية أكثر من كونها مجموعة من الرسائل الدينية مبعثرة في المصنفات العُمانية ، هذه النوعية الأدبية مازالت بمثابة أرشيف سجل للأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية لاثني عشر قرناً وقد خلص الباحث السالمي^(٣٣):

أولاً: إن السير قد تكون على أنواعها إلا أنها عبرت عن نوعية أدبية واحدة.

ثانياً: من خلال الربط الموضوعي في هذه النوعية الأدبية يتبين التطور الايديولوجي والفكري عند الإباضية في شرق الجزيرة في البصرة وتطورها حتى عُمان والأحداث الداخلة التي تلت بعد استقلال عُمان.

ثالثاً: هذا ما يوضع بأن هذا الفن الأدبي نشأ في البصرة أواخر الحكم الأموي وتُبنى من أئمة الإباضية هنالك ثم انتقل من بعد إلى عُمان مع حملة العلم وتبنوا هذا الأسلوب الأدبي.

ب- المدونات الفقهية موائمة بين الفقه والواقع المجتمعي

إنَّ المتأمل في الآثار الإباضية الثقافية الأولى يجد التنوع مع مراعاتها للواقع المعاش، فبدأت بما عرف بالرسائل التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم ومع السُلطات ، وكان الغرض منها إيضاح وجهة نظرهم فيما شجر بين فئات الأئمة من خلاف ، والموقف من السلطة القائمة ومن المسلمين الآخرين (٦٣).

أما كتابة الفقه العام والتي كانت في الحقيقة إعادة ترتيب للفتاوى وللأجوبة البائدة بالإمام جابر بن زيد ومن المدونات: مدونة أبي غانم الخرساني، ومدونة عبد الله بن يزيد الفزاري، ومن الجوامع: جامع ابن بركة، وجامع ابن جعفر ، يقول ابن النديم إنَّ للإباضية كتباً كثيرة في الفقه وعلم الكلام لكن القوم يخفونها ، وفي الواقع

فإنَّ التأليف الفقهي بالذات نضج عندهم قبل غيرهم؛ لأنَّ الدولة ظهرت في أوساطهم وصار من الضروري التدوين والتعليم والتنشئة والتدريب والتنظيم وحلَّ المشكلات^(٦٤).

ولا شك أن هذه المدونات -رغم تناولها لجوانب فقهية، فإنها- تُعدّ سجلاً حافلاً لجوانب كثيرة من حياة الأفراد والجماعات، وتعمل على كشف العديد من القضايا الفكرية والاجتماعية، كما تعبر عن الانشغالات الحقيقية والملموسة التي عاشها الإنسان في بيئاته المختلفة والتي شملت كل مجالات الحياة، وفي الوقت نفسه فقد جاءت تعبيراً واقعياً لطبيعة المجتمع الإسلامي، تزداد أهمية المدونات الفقهية العُمانية عند دراسة النشاط الاقتصادي: الزراعة والتجارة، وملكية الأرض، فإن افتقار المكتبة العُمانية عموماً لمدونات متخصصة تعالج أحكام الأرضين قياساً بما أنتجه أهل السنة والشيعة في هذا المجال قد جعل مدونات الفقه الإباضي مصدراً هاماً لدراسة أحوال المجتمع العُماني ومختلف نشاطاته الاجتماعية والاقتصادية^(٦٥).

ولعل من حسن الطالع أن إقليم عُمان شهد خلال القرنين الثالث والرابع ولادة علماء كبار أسهموا في رفد الحياة الثقافية بمصنفاتهم الفقهية، والتي أضحت اليوم مصدراً أساسياً لرصد نشاط المجتمع العُماني في شتى مناحيه، فانفتح للباحثين من خلالها باب يستطيعون من خلالهولوج بثقة للبحث والكشف عن مظاهر التاريخ الحضاري العُماني الإسلامي.

إن البحث في المدونات الفقهية يوفر للباحث معطيات تساعد على فهم بنيت المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ويبدو ذلك جلياً من خلال الأسئلة التي طرحت على الفقهاء، والتي تظهر خصوصيات المجتمع العُماني، فقد حاول الفقهاء التوفيق بين معطيات واقع مجتمعه الذي بُنيَّ على أعراف وعادات تعود جذورها إلى فترات ما قبل الإسلام، وبين الشرع الإسلامي.

ومن بين أبرز المدونات الفقهية موسوعة الفقيه محمد بن محبوب بن الرحيل (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) والتي جاءت في سبعين مجلدة، ولا زالت في عداد المخطوطات ومن حسن الحظ أن عثر على قطعة منها في مكتبة الشيخ صالح العلي بني يزقن بوادي ميزاب في الجزائر تحت عنوان "كتاب في أبواب من السنة" وقام بتحقيقها سليمان الورجلاني وطبعة عن وزارة التراث والثقافة في سلطنة عُمان^(٦٦)، وكذلك "الجامع" تصنيف الفقيه أبي الحواري

(من علماء القرن الثالث الهجري\ التاسع الميلادي) والذي يعد مصدراً أساسياً لمن جاء بعده من الفقهاء ، والدليل على ذلك أن الكتب بعد أن فقدت نسخه المخطوطة ، قام أحد محبي أبي الحواري بجمعه من خلال النقول التي استلت من الكتاب ، لاسيما من كتاب "بيان الشرع" لمحمد بن إبراهيم الكندي (ت ٥٠٨هـ / ١١١٥م). وهذا يدل على الأهمية العلمية للكتاب وصاحبه بأنه كان مصدراً أساسياً اتكأ عليه كبار علماء القرنين الرابع والخامس الهجريين ومن جاء بعدهم^(٦٧)، وكذلك "كتاب الجامع" لأبي جابر محمد بن جعفر الأزكوي^(٦٨).

وكتاب "الضياء" لسلمة بن مسلم العوتبي (من علماء القرنين الرابع والخامس الهجريين\ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) ، ثم توالى في القرون التالية مصنفات موسوعية أهمها "بيان الشرع" للشيخ محمد بن إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن المقداد الكندي السمدي النزوي (ت ٥٠٨هـ / ١١١٥م) ، وكتاب "المصنّف" للشيخ أبي بكر أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي (ت ٥٥٧هـ / ١١٦٢م).

والمطالع لتلك المدونات الفقهية يلمس الأثر الكبير لآراء وفتاوى أبي الحواري، فقد كانت فتاواه وآراءه مرجحة في كثير من القضايا الفقهية فيما يتعلق بمجمل الحياة اليومية^(٦٩).

تنبع أهمية هذه المدونات في كونها تعكس الاجتهادات الفقهية لمصنفيها ومواقفهم حيال المشكلات اليومية التي يواجهها المجتمع الذي يعيشون فيه ، والتي من خلالها يستطيع الباحث تلمس طبيعة المجتمع ومظاهر نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فالمدونات أشبه بالمرآة التي تنعكس على صفحاتها صور متنوعة للمجتمع العُماني خلال القرون الهجرية الستة الأولى.

كما تمتاز المصنفات الفقهية العُمانية بميزة خاصة تتمثل بغزارة المادة الحضارية التي تضمنتها ، فإن أولئك العلماء والفقهاء عندما صنفوا تلك الموسوعات لم يكن هدفهم التاريخ لذاته، بل كانوا يعالجون في فتاويهم واقع مجتمعاتهم ومشكلاته ، وبالتالي فهي تعكس الاجتهادات الفقهية لمصنفيها ومواقفهم حيال تلك المشكلات ، والتي يستطيع الباحث من خلالها اليوم تلمس طبيعة المجتمع ومظاهر نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فغدت المدونات أشبه بالمرآة التي تنعكس على صفحاتها صور متنوعة للمجتمع العُماني خلال القرون الهجرية الستة الأولى.

وهناك حقائق لا بد من التنويه إليها في هذا المجال أهمها أن تلك المصنفات عاجلت قضايا خاصة بالمجتمع العُماني لا نجد لها ما يماثلها في المجتمعات الإسلامية الأخرى، فعكست خصوصية للمكان وأهله ، ولو ضربنا مثلا واحداً للمسنا حقيقة ما أوردناه آنفاً ، فقد خصص العلامة الكندي في كتابه المصنف باباً مستقلاً للحديث عن العمران (ج ١٧) ثم أتبعه بأبواب مستفيضة في مسائل العمران، كما إن إطلالة على فهرس الكتاب تعطي صورة عن مضمونه إذ افتتح الكتاب بالبحر وحريمه ، وحريم النهر والبئر والمسجد في الوقت نفسه، فقد خصّ الأفلاج بعنايته ؛ لما لها من أهمية بالغة في حياة المجتمع، فعليها عماد الحياة والنشاط الزراعي ، إذ تعكس تلك الروايات والأحكام صوراً للتماسك المجتمعي والتشاركية في انجاز الفلج، والحفاظة عليه من خلال الجهة التي تتولى الإشراف عليه ورعايته وصيانته^(٧٠).

سادساً: دور الوقف في تنشيط الحركة العلمية:

ارتبط الوقف من حيث مفهومه ونشأته بالعمل الخيري، وقد تطورت طبيعة الأوقاف تبعاً لتطورات التي شهدتها المجتمع الإسلامي، حتى نجد الوقف قد أخذ على عاتقه توفير الكثير من احتياجات المجتمع، بل نجده منذ القرن الرابع الهجري يتحمل أعباء توفير الخدمات العامة للمجتمع: طرق، وبيمارستانات، وجسور، إضافة للمؤسسات الدينية والتعليمية.

ولقد حازت الحياة العلمية على الكثير من جهود الوقفين لا سيما في مجال المدارس والمكتبات، والتي حظيت برعاية الخلفاء العباسيين وكبار رجال الدولة والأثرياء، الذين أوقفوا أموالهم على عمارتها ، إضافة إلى بناء المدارس، فقد تكفل الواقفون بتوفير كل ما يلزم العملية التعليمية من كتب ومحابر وألواح ، إضافة إلى توفير السكن والطعام والكسوة للطلبة والمدرسين، ونظراً لكثرة تلك الأوقاف وأهميتها ، فقد خُصص النُّظار؛ لإدارتها وضمان استمرارها.

لم يقتصر دور الوقف في عملية التعليم على كونه مورداً مالياً، بل تعدى إلى ضبط العملية التعليمية، فنجد وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية للمؤسسة التعليمية، تضم الأسس التربوية للتعليم والشروط التي يجب أن تتوافر في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة، والحقوق والواجبات لكل من المعلم والمتعلم.

يمكن القول أن الأوقاف أخذت على عاتقها منذ مطلع القرن الرابع الهجري\ العاشر الميلادي مهمة توفير الخدمات العامة للناس ، لاسيما بعد أن تخلت الدولة عن كثير من مهامها بفعل التطورات السياسية الصعبة التي أخذت تعيشها الخلافة العباسية بعد تغلب العناصر الأجنبية: الأتراك البويهيون، السلاجقة على مقدرات الدولة ، وفرغ خزائن دار الخلافة بفعل تلك التطورات،

وكانت رعاية الحركة العلمية من أهم المجالات التي أقبل الوقفيون عليها^(٧١) فتنوعت الوقوف على أماكن التدريس المختلفة كالمساجد والمدارس ودور القرآن ودور الحديث والربط وخزائن الكتب ، وحسبوا الأحباس لإدامتها ؛ حفظاً للدين ورعاية للعلم وأهله من الطلبة والمدرسين^(٧٢) ، وقد ظل الحال على هذا قروناً عديدة حتى أنه نستطيع الجزم أن التقدم العلمي وازدهار العلوم المختلفة في بلاد المسلمين كان من ثمرات نظام الوقف الإسلامي، فقد كان الوقف بمثابة الطاقة التي دفعت بمسيرتها نحو النمو والتطور، إذ كان ينفق من ريعه على وجوه البر في النواحي الاجتماعية والتعليمية وفي تعزيز الجهاد^(٧٣).

والملاحظة العامة أن التعليم في تاريخ الحضارة الإسلامية لم يعتمد على الدولة في غالب الوقت، فقدم الوقف للعالم حرية العمل بكفاءة وإخلاص، فالكل يشعر بواجب النهوض بما يجب عليه من نصح الله ولكتابته ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وبقيت الهيمنة والظهور لشرع الله حتى عصور انحسار قوة المسلمين، لذا فإن إدارة المؤسسات التعليمية بصورتها العامة ونظام التعليم وتعيين المعلمين والأموال الموقوفة لجعل هذه المؤسسات قادرة على إداء رسالتها صار بأيدي العلماء ، وهذا ما دفع ابن جبير إلى القول : " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها"^(٧٤).

ارتبط النشاط العلمي في الإسلام بالحياة الدينية، فانكب المسلمون على تعلم أمور دينهم وما يتعلق به من أمور فقهية ، لذلك كان المسجد يقوم بوظائف عديدة ، إلى جانب كونه مكاناً للعبادة يؤدي فيه المسلمون صلواتهم، كان نقطة انطلاق الحركة العلمية ، تجلى ذلك بصورة واضحة في الحلقات العلمية التي يتحلق فيها طلاب العلم بمشايخهم ، يتلقون عنهم العلم ويدرسون المسائل الفقهية.

لم تكن المدن والحواضر العُمانية بمنأى عن مثيلتها من المدن الإسلامية ، فقد أدت الأوقاف دوراً أساسياً في خدمة الحياة العلمية فيها ، وكان الوقف على المساجد النواة الأولى للمدراس فيما بعد ، ومن أشهر المساجد التي كان لها دور بارز في الحياة العلمية الجوامع الثلاث التي كانت منتشرة في نزوى : جامع العقر وجامع سعال وجامع سمد ، ولعلماء "نزوى" في هذا السياق ريادة في تأليف الموسوعات العلمية / الإسلامية ، ويمكن القول إن معظم الموسوعات العُمانية في علوم الدين هي "صناعة نزوية" ويقول فضيلة الشيخ "أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة في محاضرة له عن نزوى والتاريخ يذكر أن هنالك موسوعة للإمام "ابن محبوب" في سبعين سفرًا وأخرى للإمام "بشير بن محمد بن محبوب" أيضاً في سبعين سفرًا ، غير أن هاتين الموسوعتين ليس لهما الآن وجود لا في عُمان ولا في بلاد أخرى وأيضاً ذكرهما "البدر الشماخي" في القرن السابع للهجرة^(٧٥).

كانت الوقوف والوصية من أهم مصادر تمويل الكثير من المؤسسات الدينية والتعليمية لاسيما المساجد التي انتشرت في مختلف أرجاء عُمان شأن غيره من بلدان العالم الإسلامي ، فقد تعرضت كتب الفقه الإباضي بالتفصيل لكثير من الأحكام التي تتصل بما يوقف من أوقاف على المسجد، وما يوصي به الموصون من أموال تستغل لصالح عمارته^(٧٦)، سواء كانت هذه الأموال أرضاً زراعية أو اشجاراً توقف عليه ومنها أشجار النخيل، حيث كانت اشجار النخيل من أهم الأموال التي توقف أو يوصى بها للمسجد ، وفي الوقت نفسه نجد تلك الكتب قد عرضت لأحكام تنمية وزيادة أموال الوقف ، فقد خصص الكندي لهذه الأحكام أبواباً منها "باب في مال المسجد"، و"باب في بيع أموال المسجد" ، كل ذلك لزيادة عوائد الأموال الموقوفة لمصالح المسجد، والتي من خلالها يمكن توسعة المسجد وصيانتها وعمارته، وتوفير ما يحتاج إليه من الحصر والزيت للإضاءة.

الخاتمة:

كان البعد المكاني لإقليم عُمان دوره ليكون نقطة البداية لدى منظري الفكر الإباضي لتحقيق نظريتهم السياسية بإقامة الإمامة بعد أن حول الأمويين الخلافة إلى حكم وراثي استبدادي ، ولأجل تحقيق ذلك عمل كبار العلماء من أهل المذهب على اعداد الناس في عُمان على قبول نظريتهم في الحكم والسياسة ، وحتى يتحقق الأمر كان لابد من اعداد جيل من الدعاة المؤهلين "حملة العلم" والذين نجحوا في بث الفكر الاباضي في عُمان كما نجح أقرانهم في الأمر في حضرموت وبلاد المغرب.

ومن منطلق تطبيق نظرية الإمامة والحكم ولما كان العلم شرطاً أساسياً لتولى الإمامة نجد أن أهل الحل والعقد من العلماء يحرصون على اختيار أعلمهم وأقدرهم في مجال الحكم والسياسة، والذي انعكس بدوره على منظومة دولة الإمامة حيث كان العلماء العمود الفقري لتلك المنظومة ، يتولون مختلف مناصبها.

وفي الوقت نفسه كان العلم عاملاً مهماً في استمرارية الإمامة لاسيما أنها انطلقت من منظور فكري منذ البداية ، فلم يكن أتباعها مجرد ثائرين ضد الظلم ، بل كانوا يحملون مشروعاً سياسياً يتطلب أهل علم ومعرفة لإنجازه ؛ لذا كان العلماء ومجالسهم عاملاً مهماً في تنشيط الحركة الفكرية في مدينة نزوى عاصمة الإمامة الثانية ، وكذلك في غيرها من الحواضر العُمانية.

لقد فرض المشروع السياسي الذي نادى به الاباضية (الإمامة) شروع علماء المذهب في التنظر لهذه الفكرة والتصنيف فيها، وتقديم الحجة والدليل لاسيما أن هناك معارضة سياسية من المذاهب الأخرى لما كان يطرحوه في هذا المجال.

إضافة إلى ما سبق ، فقد كان للوقف دوره في تنشيط الحركة العلمية في نزوى من خلال توفير الخدمات العامة والبنية التحتية للتعليم سواء من خلال تخصيص أوقاف لحلقات العلم بالمساجد أو وقف الكتب ، وكذلك الوقف على مصالح طلبة العلم.

الهوامش:

- (١) جاء في الرسالة: "إن أقرتينا بالإسلام وليتكما، وإن أبيتنا أن تقرّا بالإسلام، فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تنزل بساحتكما، وتُظهر نبوتي على ملككما". محمد بن سعد، الطبقات، دار صادر، بيروت، ج ١، ص ٢٦٣-٢٦٢؛ سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ، ج ٢، ص ١٧.
- (٢) للمزيد عن قصة اسلام أهل عُمان وعلاقتهم بمركز الدولة الاسلامية في عهد النبي والخلفاء الراشدين، انظر: عبدالله الحارثي، دراسات في تاريخ عُمان وحضارتها في العصر الإسلامي، مطبعة النهضة، (د.م)، (د.ت)، ص ٤٣-٧٥.
- (٣) سلمة بن مسلم بن ابراهيم العوتبي، الأنساب، تحقيق محمد إحسان النص، ط ٤، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠٠٦، ج ٢، ص ٦٢٢.
- (٤) سرحان بن سعيد الأزكوي، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق أحمد عبيدلي، دلمون للنشر، قبرص، ١٩٨٥، ص ٢٤٢.
- (٥) المصدر نفسه، ص ٢٤٥.
- (٦) الأزكوي، كشف الغمة ص ٢٤٨؛ مهدي طالب هاشم الحركة الأباضية في المشرق، دار الحكمة، لندن، ٢٠٠١، ص ١٦٢.
- (٧) للمزيد عن ظروف قيام الإمامة الثانية، انظر: عبدالرحمن السليمان، مدينة نزوى في عهد الإمامة الإباضية الثانية، دار الفرق، دمشق، ٢٠١١، ص ٦٣-٧١.
- (٨) الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إياض الذي عاش في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، لم يستسغ أتباع المذهب هذه التسمية، وكانوا يصرون على تسميتهم بأهل الحق والاستقامة. لكنهم مع الأيام قبلوها لتونا رمزا لفكرهم ومذهبهم.
- (٩) حسين غباش، عُمان الديمقراطية الإسلامية، دار الفارابي، للنشر، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٥٩-٦٠.
- (١٠) أشار البلاذري إلى استقرار الأزد في البصرة بقوله: "وحدثني مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ عَنِ الْوَاقِدِيِّ فِي إِسْنَادِهِ، قَالَ: كَانَ عَتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ اضْرِبْ قِيْرَوَانَكَ بِالْكُوفَةِ وَوَجْهَ عَتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ إِلَى الْبَصْرَةِ فَخَرَجَ فِي ثَمَانِيَةِ فُضْرٍ خِيْمَةٍ مِنْ أَكْسِيَّةٍ وَضَرَبَ النَّاسَ مَعَهُ وَأَمَدَهُ عُمَرُ بِالرَّجَالِ، فَلَمَّا كَثُرُوا بَنَى رَهْطٌ مِنْهُمْ سَبْعَ دَسَاكِرٍ مِنْ لَبَنٍ مِنْهَا بِالْخَرِيبَةِ اثْنَتَانِ، وَبِالزَّبُوقَةِ وَاحِدَةٌ، وَفِي بَنِي تَمِيمٍ اثْنَتَانِ وَفِي الْأَزْدِ اثْنَتَانِ". فتوح البلدان، ص ٣٤١؛ حسين نصار، دراسة في قبيلة الأزد، مجلة العرب، الجزء التاسع، السنة الخامسة، ربيع الأول، ١٣٩١هـ، أيار ١٩٧١، ص ٨٠١-٨١٩.
- (١١) من منظري الفكر الإباضي في البصرة، فكان من أبرز شخصياته المرحلة السرية، وقد تعرض للتعذيب والسجن بعد اكتشاف أمره في عهد الحجاج. عن دوره في تنظيم العمل السري ونشر المذهب الاباضي، انظر هاشم، الحركة الاباضية، ص ٧٨-٨٢.
- (١٢) ناصر الندابي، العلاقات الثقافية والاجتماعية بين عُمان وبلاد المغرب في الفترة ما بين القرنين ١-٨هـ، منشورات جامعة نزوى، نزوى، ٢٠١٩، ص ٨٥.
- (١٣) دليل أعلام عُمان، المطابع العالمية، منشورات جامعة السلطان قابوس، سلطنة عُمان، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص ١٥٠.

- ١٤) الجوف ناحية بُمّان (داخلية عمان). عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج ٢، ص ٣٢٢.
- ١٥) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥، ج ٤، ص ٤٨١.
- ١٦) اورد هذا القول كل من: المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠، ج ٤، ص ٤٣٦؛ عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ص ٣٦.
- ١٧) الذهبي، سير، ج ٤، ص ٤٨١.
- ١٨) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨١.
- ١٩) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٤٨٤.
- ٢٠) غباش، عُمان الديمقراطية الإسلامية، ٤٢.
- ٢١) للمزيد حول الامامة الاولى وقضاء الدولة العباسية عليها سنة ١٣٤هـ، انظر بالتفصيل: هاشم، الحركة الإباضية، ص ١٨٩ وما بعدها.
- ٢٢) للمزيد، انظر: السيابي، سالم بن حمود، العنوان في تاريخ عُمان، (د. م)، (د. ت)، ص ٦٤؛ السلياني، مدينة نزوى، ص ٧٢-٧٥.
- ٢٣) محمد بن إبراهيم الكندي، بيان الشرع، تحقيق سالم بن حمد الحارثي، ٧٢ج، منشورات وزارة التراث والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٨٤م، ج ٥، ص ٣٢٩.
- ٢٤) المصدر نفسه، ج ١٩، ١٨١.
- ٢٥) العُماني، السيرة المضيئة، ص ٦٢-٦٣.
- ٢٦) انظر على سبيل المثال: محمد بن الحواري، الجامع، مسقط: منشورات وزارة التراث والثقافة، ١٩٨٥ج ٣، ص ٢٠٧-٢٠٨؛ الكندي، بيان الشرع، ج ٢٩، ص ٢١-٢٢.
- ٢٧) السالمي، عبدالله بن حميد (ت ١٢٣٢هـ/١٩٢٣م) تحفة الأعيان بسير أهل عُمان، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، السيب، مسقط، ٢٠٠٠، ص ٣١.
- ٢٨) الكندي، أحمد بن عبدالله، المصنف، تحقيق: مصطفى صالح باجو، ط ١، مسقط: وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ٢٠١٦، ج ١٠، ص ٣١٣.
- ٢٩) أبو المؤثر، الأحداث والصفات، ص ٦١.
- ٣٠) لمزيد عن واجبات ودور أهل الحل والعقد، انظر: السلياني، مدينة نزوى، ص ١١٣.
- ٣١) العُماني، السيرة المضيئة، ص ٨ (مقدمة المحقق).
- ٣٢) وقد تم تحقيق السيرة بعناية الباحث العُماني: ناصر الندابي وصدرت بمقدمة ضافية، وصدرت عن ذاكرة عُمان، ٢٠١٨.
- ٣٣) العُماني، السيرة المضيئة، (مقدمة المحقق).
- ٣٤) السلياني، مدينة نزوى، ص ٣٥٠-٣٥١.

- (٣٥) أحمد بن سعد الدرجيني (ت ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، (د.م)، (د.ت)، ص ٣٥٧.
- (٣٦) الندابي، الصلوات الثقافية، ص ٢٤٥. للمزيد حول الصلوات الثقافية وأثر اعلماء الإباضية العُمانيين في المغرب انظر الدراسة السابقة "الندابي، الصلوات الثقافية" الباب الثاني منها.
- (٣٧) إبراهيم بوتشيش، التواصل الحضاري بين عُمان وبلاد المغرب، منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط، ٢٠٠٠م، ص ٣٧؛ السلياني، مدينة نزوى، ص ٣٥٠.
- (٣٨) محمد صابر عرب، الدولة في الفكر الإباضي، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٤، ص ١٥٤.
- (٣٩) الكندي، بيان الشرع، ج ٣٧، ص ١٠.
- (٤٠) السلياني، مدينة نزوى، ص ٣٠٤.
- (٤١) المرجع نفسه، ص ٣٠٥.
- (٤٢) البطاشي، تحاف، ج ١، ص ٢٧٨.
- (٤٣) البطاشي، تحاف، ج ١، ص ٢٠١.
- (٤٤) الكندي، بيان الشرع، ج ٣٧، ص ١٠.
- (٤٥) للمزيد حول قضية العزل من حيث أسبابها وظروفها وجرايتها، انظر دراسة علمية جادة للباحث العُماني علي الريامي بعنوان قضية عزل الصلت بن مالك الخروصي. وهي في الاصل اطروحة ماجستير\ قسم التاريخ -جامعة السلطان قابوس، ونشرت عن دار الغشام ٢٠١٥.
- (٤٦) المرجع نفسه، ص ١٨٣-١٨٤.
- (٤٧) كان من النتائج التي ترتبت على عزل الصلت بن مالك دخول البلاد في حرب أهلية طاحنة، انتهت باستعانة القبائل النزارية بوالي العباسيين على البحرين محمد بن نور، والذي قاد حملة عسكرية أنهت الإمامة الإباضية الثانية عام ٢٨٠هـ / ٩٠١م). محمد بن عامر المعولي (ت ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م) قصص واخبار جرت بعُمان، تحقيق عبد المنعم عامر، منشورات وزارة التراث والثقافة، مسقط، ١٩٧٩، ص ٢٧٠؛ السالمي تحفة الأعيان، ج ١، ص ٢٥٧.
- (٤٨) للمزيد من التفصيل والتوسع في هذه المسألة، انظر: الريامي، عزل الإمام الصلت، ص ١٨٣-٢٣٩.
- (٤٩) الكندي، أبو بكر أحمد بن عبد الله (ت ٥٥٧هـ / ١١٦٢م) الاهتداء، تحقيق سيدة اسماعيل كاشف، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، ١٩٨٥، ص ٢٥، تهاني الحوسني، نظام الحكم في عُمان بين فقه المذهب والممارسة السياسية (١٧٧-٣٤٢هـ)، قسم التاريخ امعة السلطان قابوس، ٢٠١٩، ص ٩٧.
- (٥٠) الكدومي، أبو سعيد محمد بن سعيد: الجامع المفيد من أحكام أبي سعيد، مسقط: منشورات التراث القومي والثقافة، ١٩٨٦، ج ١، ص ١٢٣.
- (٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢١.
- (٥٢) كانت تلك الحملة سنة ٢٨٠هـ / ٩٨٣م. فقد استغل محمد بن نور والي الخليفة العباسي على البحرين الظروف السياسية والصراعات القبلية التي اجتاحت عُمان عَقِبَ عزل الإمام الصلت بن مالك، فجهز حملة، استطاع بعد معركة سمد الشأن أن يستولي على مدينة

- نزوى عاصمة الإمامة. للمزيد، انظر: الأزكوي، تاريخ عُمان، ص ٥٦؛ السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٢٥٨؛ الريامي، عزل الصلت بن مالك، ص ١٥٤-١٦١؛ الوهبي، يوسف، موقف الإمامة الإباضية من الصراع القرمطي البويهي على عُمان (٢٨٧-٤٤٧هـ/٩٠٥-١٠٥٥م) رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٨، ص ٨٨-٩٠.
- ٥٣) السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ١٩٤.
- ٥٤) العُماني، السيرة المضيئة، ص ١١ (مقدمة المحقق).
- ٥٥) المرجع نفسه، (مقدمة المحقق: سلطان الشيباني)، ص ٥.
- ٥٦) العبيدلي، أحمد، السير العُمانية كمصدر لتاريخ عُمان سيرة محمد بن محبوب، مجلة نزوى، العدد الثاني، ٢٠١٥، ص ٢٦.
- ٥٧) المرجع نفسه، ص ٢٧-٢٨.
- ٥٨) محمد القدحات وخالد الرحيبي، المدونات الفقهية مصدرًا لدراسة النشاط الزراعي في عُمان. جامع أبي الحواري (ت مطلع ق ٤هـ/١٠م) أنموذجًا، مجلة المناة، جامعة آل البيت، الأردن، مج ٢٢، ع ١٤د، ٢٠١٦، ص ٢٨.
- ٥٩) انظر قائمة بأسماء السير التي ضمنها الشيباني تقديمه للسيرة المضيئة، ص ٧ وما بعدها.
- ٦٠) العبيدلي، السير العُمانية، ص ٢٨.
- ٦١) المرجع نفسه، ص ٢٨.
- ٦٢) السالمي، السير العُمانية، مجلة نزوى، ع ٢٤، ٢٠٠٠م
- ٦٣) السيد، رضوان، من الفتاوى إلى المدونات والجوامع. نظرة في تطوّر التأليف الفقهي عند الإباضية، ندوة تطور العلوم الفقهية. فقه النوازل وتجديد الفتوى، المنعقدة بمسقط ٢٠٠٧م، مطبوعات وزارة الأوقاف، مسقط، ٣، ٢٠١٢م، ص ٢٥-٢٦.
- ٦٤) ابن النديم، ابو الفرج محمد بن اسحاق، الفهرست، تحقيق ابراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٧م، ص ٢٥١؛ السيد، نظرة في تطوّر التأليف الفقهي، ص ٢٦-٢٧.
- ٦٥) القدحات والرحبي، المصنفات الفقهية، ص ٢٩.
- ٦٦) الرحيلي، محمد بن محبوب (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) سيرة محمد بن محبوب إلى أهل المغرب، تحقيق ناصر الندابي، منشورات ذاكرة عُمان، مسقط، ٢٠١٨، (مقدمة المحقق)، ص ٣٠.
- ٦٧) القدحات والرحبي، المدونات الفقهية، ص ٢٨.
- ٦٨) أول المدونات الفقهية التي ظهرت في عُمان هو جامع أبي الحواري. لم يصلنا الكتاب بالصورة التي صنفه بها صاحبه، فقد الكتاب في جملة ما ضاع من هذا التراث. فجامع أبي الحواري الذي بين أيدينا والذي طبعته وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عُمان، ليس هو أصل الكتاب الذي ألفه الشيخ ابو الحواري محمد بن الحواري بعنوان "الجامع". ولكن كان من حسن الطالع أن حُفظت الكثير من نصوص الجامع في المدونات الفقهية التالية له زمنيا. يظهر أن الذي قام بجمع الكتاب قد توفرت له أجزاء من الأصل، يتضح ذلك من المقدمة التي قدم بها لعمله في جمعه للكتاب فقال: "فإني قد وجدت هذا الكتاب منسوباً لأبي الحواري ومكتوب فيه هذا الكتاب منسوخ من كتاب أوله وآخره منقطع. جامع أبي الحواري، دار المخطوطات بوزارة التراث والثقافة سلطنة عُمان، رقم ٢٧٧، مقدمة المخطوطة



- ٦٩) انظر على سبيل المثال، الكندي، بيان الشرع، ج ١٣، ص ٤٧، ص ٦٧، ص ١٣٣؛ ج ٢٢، ص ٤٠، ص ١٧٧؛ ج ٢٦، ص ١٨، ص ٣٥، ص ٣٦، ص ٤٠؛ ج ٢٩، ص ٤٩، ص ٧٧؛ الكندي، المصنف، ج ٢١، ص ١١، ص ٣٣، ص ٦٨، ص ١٣٩؛ ج ٢٩، ص ٣٩، ص ٥٢، ص ٩٣، ص ١٧٢، ص ١٧٣؛ ج ٣٢، ص ٤٤، ص ٩٩، ص ١٢١، ص ١٤٤؛ ج ٣٩، ص ١١٩.
- ٧٠) القدحات، الرؤى الحضارية في المصنفات الفقهية، (مقال في جريدة الوطن)
- ٧١) الشتري، ١٤٢٠هـ، ج ١، ص ٥٠٥
- ٧٢) ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ط ٢، بغداد، مطبعة العاني، ج ١، ص ٦٤
- ٧٣) الدوري، عبد العزيز، دور الوقف في التنمية، ندوة أهمية الأوقاف في عالم اليوم، التي عقدها المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (الأردن) في لندن، ١٩٩٦، ص ١..
- ٧٤) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦٢٦هـ/١٢١٧م) الرحلة، دار الهلال، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٣٤.
- ٧٥) اليحيائي، محمد، مدينة نزوى، مجلة نزوى، عدد نوفمبر، ١٩٩٤.
- ٧٦) العوتبي، سلمة بن مسلم (٢٠١٥) الضياء، تحقيق الحاج سليمان بن ابراهيم بابيز، وداود بن عمر بابيز، ط ١، باقي الأجزاء دون تحقيق، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عُمان، ٢٠١٥، ج ٥، ص ٥٠-٥١.